جرمانيا لتاكيتوس

بقلم
الدكتور محمد سليم سالم

حياة تاكيتوس

لسنا ندرى شيئاً عن حياة تاكيتوس إلا ما يقوله هو نفسه وهو قليل جداً ، وإلا ما ذكره پلينى الأصغر عنه وليس هذا بالشىء الكثير . فاسمه الأول موضع شك : هل هو جايوس أو پوبليوس . ومع أنه ينتمى بالتأكيد إلى العشيرة الكورنيلية ، إلا أننا نجهل إن كان ينتسب إلى الفئة الأرستقراطية فيها ، أو إلى الفئة البلبيية كما أن مسقط رأسه غير معروف . أما إنترامنا (تيرنى الآن) ، من أعمال أومبريا ، فقد حظيت بهذا الشرف ، لأن الإمبراطور تاكيتوس الذى تولى العرش شهوراً قليلة بعد موت أورليان ، فى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، كان يزعم أنه من سلالة المؤرخ العظيم ، وكان من أهل هذه البلدة . أما عن تاريخ مولده ، فهو أمر أحاط به ظلام كثيف . غير أنه من المستحسن استعراض ما ذكر بلينى الأصغر الذى يقول فى الرسالة العشرين من الكتاب السابع من رسائله أنه وتاكيتوس كانا قرينين تقريباً فى السن والمنصب aetate et dignitate prope modum aequales . ولكن بلينى فى موضع آخر يذكر أنه كان شاباً صغيراً adulescentulus ، عندما كان تاكيتوس خطيباً مرموقاً فى دور القضاء . ويعطينا تاكيتوس نفسه بعض النقاط فى تاريخ حياته . فهو يقول فى أول تاريخه Historiae إنه انتظم فى سلك الوظائف العامة لأول مرة فى عصر فيسپاسيان ، وإنه استمر فى الرقى فى زمن ابنه تيتوس . ومن التواريخ القليلة المؤكدة فى سيرته أنه شغل وظيفة بريتور فى سنة ٨٨ بعد الميلاد . ثم اختاره الإمبراطور نيرفا قنصلا ، فشغل هذا المنصب بعد وفاة فيرجينيوس روفوس (الذى مات وهو يشغل هذه الوظيفة) . وكان من المقدر لهذا القائد الوطنى أن يحظى بأعظم تكريم عند وفاته ، إذ ألقى تاكيتوس خطبته الجنائزية .

وفى سنة مائة بعد الميلاد وقع الاختيار عليه وعلى صديقه بلينى الأصغر ليقوما بعبء الاتهام الذى وجهته ولاية إفريقية ضد حاكمها القنصل السابق ، ماركوس بريسكوس . ولكن المتهم أقر بجريمة السلب ، فلم يبق إلا اختيار لجنة لحساب الأموال التى نهبت . ولكن هذا الإجراء لم يرض تاكيتوس وبلينى ، فعرضا على مجلس الشيوخ أن هناك جرائم لا يمكن للجنة أن تنظر فيها ، فبريسكوس متهم بأنه قبل رشوة لإصدار أحكام على أبرياء بالإعدام والسجن . وبعد مناقشة طويلة ، رأى

مجلس الشيوخ استدعاء الرجلين اللذين قيل إنهما قدما الرشوة لبريسكوس . واستدعى كذلك بريسكوس ليكون قرار المجلس فى مواجهته . ترافع بلينى فى اليوم الأول وتكلم تاكيتوس فى اليوم الثانى ، ولا يجد بلينى وصفاً لبلاغة زميله أفضل من الكلمة اليونانية σεμνῶς.

مؤلفاته

أول كتيب نشره تاكيتوس عنوانه : محاورة عن الخطباء dialogus de oratoribus ، وهو مقال يستحق وصفه بالذهبى aureolus ، وهو النعت الذى تلقاه به العلماء عند كشف مخطوطه فى سنة ١٤٢٥ بعد الميلاد .

وقد تردد كثير من الباحثين فى نسبة هذا الكتيب إلى تاكيتوس ولكن نسبته الآن فوق كل شك . وأكثر ما يلاحظ على هذه المحاورة أن أسلوبها يبتعد كثيراً عن أسلوب تاكيتوس فى كتبه الأخرى ، ويقترب كثيراً من بلاغة سيشرون . ومن المحتمل أن هذا الكتيب نشر فى زمن تيتوس (٧٨ — ٨١ بعد الميلاد) ، أو على الأقل فى أوائل عهد دوميتيانوس . وطبقاً لهذا الرأى الأخير يمكن أن يقال إن هذا الكتيب نشر فى سنة ٨٤ — ٨٥ بعد الميلاد . ولكن بعض النقاد يغالون فى رأيهم ويذهبون إلى أن هذا الكتاب قد نشر فى سنة ٩٥ بعد الميلاد ؛ بل إن بعضهم يرغب فى إرجاعه إلى عام ٩٧ — ٩٨ بعد الميلاد . وحجتهم الوحيدة هى أن كاتب هذه المحاورة لا بد وأنه اطلع على كتاب مبادئ الخطابة للمربى الشهير ، كوينتليان ، الذى نشر فى عام ٩٤ — ٩٥ ميلادية . ولكن هذا التاريخ المتأخر يناقض الدليل المستمد من أسلوب هذه المحاورة، وهو كما قلنا يميل إلى بلاغة سيشرون . إذ أن فى ذاك التاريخ المتأخر كان أسلوب تاكيتوس قد ظهرت عليه بوضوح علامات التطور . ومن الممكن أن يكون قد مضى وقت طويل بين نشر محاورة عن الخطباء وظهور كتاب أجريكولا .

أما موضوع هذه المحاورة فهو أسباب ضعف الخطابة وانحطاطها فى العصر الفضى . وقد عالج تاكيتوس عوامل هذا التدهور فى الفصول ٢٨ — ٤١ من هذا الكتاب . أما كل الفصول السابقة فقد عدت بمثابة مقدمة . فالفصول الأربعة الأولى تصف الظروف التى عقد أثناءها الاجتماع . وقد اختار تاكيتوس دار ماتيرنوس لتكون مكاناً للمناقشة . وماتيرنوس كاتب شاعر كان فى أواخر حياته يرغب فى هجر دور القضاء ليتفرغ لقرض الشعر . وربما أراد تاكيتوس أن يكون ماتيرنوس ألمع شخصية فى المحاورة . فهو الذى يهيمن على المناقشة ويوجهها حيث يريد . ومن الجائز أن يقال إنه يمثل تاكيتوس نفسه .

وفى الفصول (٥ — ١٣) يظهر ماركوس أپير وهو رجل عصامى وفد من غاليا ، وأصبح أعظم خطباء روما فى تلك الفترة . ومن الطبيعى أن يكون متعصباً للبلاغة الجديدة والفن الحديث ضد بلاغة القدماء . فأپير واقعى ، عملى ، نفعى .

ويقف منه موقف النقيض ماتيرنوس الذى يأتى رده موجزاً (١١ — ١٣) ؛ ويتميز حديث ماتيرنوس بالجد والصرامة الأخلاقية . فالفوائد العملية التى يشير إليها أپير لا تعد شيئاً فى نظره ، ولن يقيم لها وزناً، فهو يتعلق بالماضى ومثله العليا .

ويبدأ القسم الأول من المحاورة (١٤ — ٢٧) بدخول ڤيپستانوس ميسالا Vipstanus Messala ، وهو رجل نبيل مثقف من أتباع فيسپسيانوس . ويوجد فى هذا الجزء خطبتان : إحداهما ألقاها أپير ، والثانية ألقاها ميسالا . يتحدى أپير ميسالا أن يدلى بأدلته فى الاحتجاج لرأيه المعروف وتفضيله للبلاغة القديمة وقدحه فى الفصاحة الحديثة . فأپير نفسه لا يرى أن هناك ضعفاً أو انحطاطاً وإنما هناك اختلاف طبيعى اقتضته التغيرات التى حدثت فى البيئة ودعا إليه اختلاف الأزمنة .

ولكن ميسالا ينهمر (٢٥ – ٢٧) فى الدفاع عن القدامى وذم المحدثين. فيتدخل عندئذ ماترنوس ليذكره بأن موضوع النقاش هو أسباب تدهور الخطابة، أما انحطاطها وضعفها فأمر معترف به. فيشرح ميسالا الأسباب التى أدت فى رأيه إلى هذا التدهور. وهى:

أولا: الإهمال فى تربية الأطفال فى العصر الفضى إذا قيس بما كان متبعاً فى العصر الذهبى (٢٨ – ٣٢).

ثانياً: سطحية التدريب وعادة إلقاء الخطب فى أتفه الموضوعات.

« كان كل طفل فى الأيام الخالية، مولودا من أم زانتها العفة، يربى فى أحضان أمه وبين ذراعيها، لا فى غرفة صغيرة تقطنها مرضعة مشتراة. ولم يكن لأى أم من ثناء أعظم من رعاية أبنائها والإشراف على دارها. وقد جرت العادة كذلك على اختيار عجوز من ذوى القربى فحصت أخلاقها فحازت القبول؛ وكان جميع أطفال الأسرة يوضعون تحت رقابتها. وفى حضرة هذه السيدة لم يكن من الجائز أن ينبس الطفل بما يستهجن النطق به، ولا أن يرتكب ما يشينه فعله. وقد أشرفت هذه السيدة بسلطان مقدس ولكنه رءوف رحيم لا على دراسة هؤلاء الأطفال الجدية وكل ما يعنيهم فحسب، ولكن على لهوهم ولعبهم أيضاً.

« هكذا سارت الرواية بأن كورنيليا أم ابنى جراكوس قامت على تربية ابنيها، وهكذا أشرفت أورليا على تربية يوليوس قيصر، وأتيا على تربية أغسطس ونشأن أبناءهن ليكونوا فى الصدارة. وكان الهدف من هذا النظام الصارم أن يتجه الطفل بسجية سليمة وطبيعة بريئة لم تدنسها رذيلة بكل قلبه وفؤاده إلى الفنون الشريفة؛ وسواء أقبل على دراسة الشئون العسكرية أو العلوم القانونية أو الدراسات البلاغية جعل من ذلك هدفه الوحيد ونبعه الذى ينهل منه.

« أما الآن، فإن الطفل يسلم منذ ولادته إلى أمة يونانية حقيرة يضم إليها واحد من أولئك العبيد، دون دقة أو عناية، وهو فى أكثر الأحيان أبخسهم ثمناً وأقلهم صلاحية لأى عمل جدى. ولهذا امتلأ ذهن الطفل وهو لا يزال فى المهد بخرافات الأرقاء وأخطائهم. وليس فى الدار كلها من يهتم بما يقول أو بما يفعل أمام هذا الطفل سيد المستقبل. وحتى الوالدان لا يقومان بأى جهد لتدريب طفلهما على الفضائل وضبط النفس. ولهذا ينمو الأطفال فى جو من الرذيلة والبذاءة. وكلما تقدمت بهم العمر، قل ما يشعرون به من حياء حتى ينتهى بهم الحال إلى احتقار أنفسهم وازدراء الآخرين.

« كما أن هناك أنواعاً من الرذائل لا توجد إلا فى مدينتنا وعاصمة بلادنا، فهى خاصية من خواصنا، لا يشاركنا فيها سوانا، وأعنى بها غرامنا بالممثلين وتهافتنا على المجالدين وجنوننا بسباق الخيل، حتى ليمكن أن يقال إن الطفل يكتسب هذه الرذائل وهو فى رحم أمه. وإذا امتلأ الذهن حتى فاض بمثل هذه القبائح، فأى مكان قد بقى فيه للدراسات العليا. ما أقل الدور التى يدور فيها حديث غير ذلك! أى كلام آخر يمكنك أن تتسمع إليه إن دخلت على الشبان غرف دراستهم؟ وهذا النحو من اللغو هو أكثر ما يلوك المعلمون مع تلاميذهم لأن هؤلاء المعلمين لا يجتمع حـولهم الشبان لصرامة تدبيرهم أو عبقرية فى تدريسهم، ولكنهم يجمعون التلاميذ حولهم بمرورهم على الدور للتحية ولاستخدامهم حيل الإغراء والتملق.

وليس إهمال تنشئة الأطفال منذ نعومة أظفارهم هو السبب الوحيد فى تدهور الخطابة فى العصر الفضى، ولكن عدم الاهتمام بتعليم المبادئ الأساسية والفوضى الضارية فى مدارس الريطورية من بين العوامل التى أدت إلى قحط كبير فى عباقرة الخطباء. كان القدماء يبذلون أقصى جهدهم للإلمام بمعارف كثيرة. فالخطيب من أشد الناس احتياجاً إلى مختلف العلوم. ففضلا عن اتقان اللغة القومية والتاريخ الوطنى ومعرفة قوانين البلاد وعاداتها، فلا بد من طرف من الفلسفة فى

مدارسها المختلفة . ويضرب ميسالا مثلا بما بذل سيشرون من جهود لتسلق ذرى البلاغة كما ذكر ذلك سيشرون نفسه فى آخر كتابه « بروتوس » .

وعندما رأى ماتيرنوس تدفق ميسالا فى تبيان جهود القدامى وإهمال المحدثين طلب إليه أن يشرح لهم نهج القدامى فى التدرب على الخطابة . فالمعارف النظرية ، وإن كانت هامة ، إلا أنها لا تسمو إلى قيمة التمرس والتمرين . وفى العصر الفضى كثر حشد الناس لسماع الخطباء أو الاستماع إلى الشعراء أو الإنصات إلى القصص المسرحية حتى أصبحت هذه العادة مرضاً وعاملا على إفساد البلاغة الحقيقية ورواج المناهج الريطورية .

وقد رد ميسالا بأن القدامى كانوا يعهدون بأبنائهم إلى رجال ممن علا اسمهم وذاعت شهرتهم ووثق الناس فى أخلاقهم وعلمهم . فكان هؤلاء الشبان يلازمونهم كظلهم فى البيت وفى الطريق ، وفى دور القضاء والمجالس العامة ، فيأخذون عنهم علماً ينبض بالحياة ويقلدونهم عن قرب فى وسط غبار السوق وصياح المتنازعين . ولكن موضوعات الإنشاء المألوفة الآن فى مدارس الريطوريقا التى خيم عليها الجهل لا غناء فيها أو نفع ، نحو : « دواء الطاعون » و« اختيار المعتدى على عفافها » و « الأم التى ارتكبت جريمة الزنا بالمحارم » .

ويرد ماتيرنوس مبيناً أن الحالة السياسية فى عصر الجمهورية كانت تعاون على ازدهار الخطابة . فالفصاحة والبلاغة من أقوى الأسلحة فى النظام الدمقراطى . أما وقد حل النظام الإمبراطورى فقد قلت أهمية الفصاحة ، وزادت قيمة الدقة فى التفكير والتعبير . فالهدوء الشامل والسلام الذى يرفرف على البلاد أعم نفعاً من بلوغ الذروة فى الخطابة .

وبعد فترة طويلة نشر تاكيتوس كتاب أجريكولا Agricola تكريماً لوالد زوجته الذى توفى فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس من عام ٩٣ بعد الميلاد ، وكان صهره ، تاكيتوس ، غائباً عن رومة . ولهذا لم يستطع إلقاء خطبته الجنائزية laudatio funebris ، كما أن الإمبراطور دوميتيان لم يكن ليصبر على الثناء على رجل أبعده عن حكم بريطانيا ، ويقال إنه أراد قتله بالسم . كان على تاكيتوس أن ينتظر حتى يأتى اليوم الذى يستطيع فيه أن يثنى على والد زوجه دون ما ضرر يصيبه . فمتى نشر هذا الكتاب الذى يحمل اسم أجريكولا ؟ من البديهى أنه نشر بعد موت دوميتيان فى الثامن عشر من شهر سبتمبر فى عام ٩٥ ميلادية ، وبعد أن ذهب الطغيان الذى استمر خمس عشرة سنة ، والذى لم يزل ، قبل أن يقضى على الحياة العامة فى رومة . ولما كان تاكيتوس فى الفصل الثالث من كتاب أجريكولا يشير إلى الإمبراطور نيرفا دون أن يضيف لفظ المرحوم divus إلى اسمه ، لهذا يرى البعض أن هذا الكتيب قد نشر قبل موت نيرفا فى ٢٧ يناير من سنة ٩٨ ميلادية .

ولكن لما كان استخدام كلمة المرحوم divus فى الإشارة إلى من قضوا نحبهم من الأباطرة لا يسير على وتيرة واحدة ، كما أن تراجان لقب بالرئيس princeps فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ولم يحمل طبعاً هذا اللقب إلا بعد وفاة نيرفا ، لهذا يرى البعض أن كتاب أجريكولا نشر فى عام ٩٨ بعد الميلاد ، ولكن بعد موت نيرفا وقبل ظهور كتاب جرمانيا الذى نشر فى نفس السنة .

وقد ثار جدل طريف حول النوع genre الذى ينسب إليه كتاب أجريكولا : أهو سيرة ؟ أم خطبة جنائزية أتت متأخرة لظروف قاهرة ؟ أم هو منشور سياسى يدافع فيه تاكيتوس عن صمته وسكوت أجريكولا على الظلم والطغيان ؟ أم هو كل ذلك مجتمعاً ؟

ولد جنايوس يوليوس أجريكولا فى الثالث عشر من شهر يونية من عام ٤٠ بعد الميلاد فى مستعمرة سوق

يوليوس Forum Iulii (فريجيس Frejus الآن) من أعمال غاليا الناربونية . وقد نشأ فى أسرة من طبقة الفرسان . وكان أبوه يوليوس جرايكينوس Iulius Graecinus عضواً فى مجلس الشيوخ ومعروفاً بحبه للفلسفة والفصاحة . وقد جرت عليه شهرته هذه غضب جايوس قيصر كاليجولا الذى أمره أن يقوم باتهام ماركوس سيلفانوس ، فلما أبى ، أمر بقتله . وكانت والدة أجريكولا ، وتدعى يوليا بروكيـــلا Iulia Procilla على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة .

وقد جنب أجريكولا الوقوع فى الرذائل سجية حسنة وسكناه فى بلدة مارسيلية منذ طفولته ، وهى بلدة جمعت بين الذوق اليونانى وطباع الريف . وكان أجريكولا فى شبابه يتحرق شوقاً إلى دراسة الفلسفة ، إلا أن والدته منعته من الانهماك فى هذه الدراسات النظرية .

قضى أجريكولا فترة التجنيد الإجبارى تحت قيادة سويتونيوس باولينوس فى بريطانيا . ولم يجعل أجريكولا فترة تدريبه لهواً ولعباً كما يفعل أكثر الشبان ، ولكنه وجه عنايته إلى دراسة بريطانيا ومعرفة سكانها والإلمام بنظام الجيش الرومانى . أخذ أجريكولا فى تلك الفترة الفنون العسكرية عن الخبراء ، وسار فى إثر الأخيار ، لا يأبى إقتحام الأخطار جبناً وفزعاً ، ولا يلقى بنفسه فى التهلكة تهوراً ومفاخرة . وكانت بريطانيا فى ذاك الوقت تموج بالثورات وكان الجيش الرومانى يحارب فى البداية دفاعاً عن نفسه ، قبل أن يفكر فى النصر أو تهدئة الاضطرابات .

وبعد أن قضى أجريكولا فترة التدريب عاد إلى رومة ، وهناك اقترن بزوج فاضلة هى دوميتيا ديكيديانا Domitia Decidiana وحباه هذا الزواج قوة وشرفاً وأعانه على الوصول إلى ما يتمنى . فسافر إلى ولاية آسيا ليشغل وظيفة صراف quaestor . وكان يحكم هذه الولاية فى ذاك الوقت سالنيوس تيتيانوس . وعلى الرغم من ثراء الولاية وفساد الحكام ، بقى أجريكولا بعيداً عن الفساد ، طاهر اليد ، نقى الفؤاد . وفى آسيا ولدت له ابنة . فوجد الأبوان فيها مواساة لفقد ابنهما الأول .

ثم مال بعد ذلك إلى الدعة . لأن الدعة فى عصر نيرون كانت رأس الحكمة . وبذلك قضى الفترة التى شغل فيها وظيفتى تريبيون وبريتور فى هدوء تام . وبعد سقوط نيرون ، اختاره الإمبراطور جالبا لجرد النفائس التى تحويها المعابد ، فقام بذلك خير قيام .

وقد أدمت السنة التالية قلبه ودمرت منزله ؛ فقد أغار أسطول أوثو على بلدة انتيميليوم ، من أعمال ليجوريا ، فنهب دار أجريكولا وقتلت والدته . ولما علم أجريكولا بذلك ، سارع إلى هنالك . وفى الطريق علم باعلان فيسپاسيان نفسه إمبراطوراً ، فانضم تواً إلى أتباعه فأرســله موكيانوس Mucianus ، وكان ينوب عن الإمبراطور فى الحكم قبل وصول فيسپاسيان من الشرق ، ليشرف على التجنيد ، ووضعه على رأس الكتيبة العشرين ، وكانت تتألف من أسوأ الجنود نظاماً وولاء .

وكان يحكم بريطانيا فى ذاك الوقت فيتيوس بولونوس Vettius Bolanus ، وهو رجل هادئ الطبع أكثر مما يلائم قطراً ثائراً . وبعد وقت قصير تولى حكم هـــذه الجزيرة بيتيليوس كرياليس Petilius Cerealis . وكان نصيب أجريكولا ، أثناء حكم كرياليس ، الأخطار والمتاعب أولا ، ثم بعد ذلك جزءاً من المجد .

ولما عاد أجريكولا من بريطانيا ، رفعه الإمبراطور فيسپاسيان إلى مصاف النبلاء ، وعينه والياً على مقاطعة أكويتانيــا Aquitania . ومع أن أجريكولا كان رجلا عسكرياً ، قضى أكثر أيامه فى المعسكرات ، إلا أن حكمه لهذه الولاية امتاز بالحزم والعدل . وقد بقى فى هذه البلاد أقل من ثلاث سنوات . ثم استدعى ، وكان الرأى العام الذى لا يخطئ على الدوام ، بل لقد

يخالفه حسن الاختيار فى بعض الأحيان ، قد أشار إليه على أنه حاكم بريطانيا المنتظر .

وفى أثناء حكم أجريكولا لولاية أكويتانيا ، تمت خطبة ابنته إلى تاكيتوس ثم تم عقد قرانهما بعد انتهاء قنصلية أجريكولا . وتبع ذلك اختيار أجريكولا حاكماً لبريطانيا وتعيينه فى منصب كبير للكهنة pontifex

موجز لتاريخ الحكم الرومانى فى بريطانيا

وكان أول رومانى وطأت قدمه أرض بريطانيا هو يوليوس قيصر . ولا يمكن القول بأنه أخضع هذه الجزيرة ،ولكن يمكن أن يقال إنه لفت إليها الأنظار .. وفى أثناء الحرب الأهلية وفى زمن أغسطس وتيبريوس تركت بريطانيا وشأنها . وكان الإمبراطور كلوديوس هو أول من أعاد الكرة وأرسل جيوشه عبر بحر المانش وقد وضع فيسپاسيان على رأس هذه الحملة . ولكن بريطانيا لم تهدأ ، بل انتشر فيها التذمر . وعندما تولى سويتونيوس باولينوس حكم الجزيرة سار على رأس حملة إلى جزيرة مونا للاستيلاء على هذه الجزيرة التى كانت ملجأ للثوار . ولكن البريطانيين انتهزوا فرصة غياب الحاكم العام وقاموا بثورة عارمة تحت قيادة الملكة بوديكيا Boudicea التى انقضت على الجنود المقيمين فى القلاع الرومانية ، وهاجمت المستعمرة البريطانية بقسوة وهمجية نادرة . ولما علم باولينوس بذلك ، سارع بالرجوع من جزيرة مونا . وفى موقعة واحدة تم اخضاع بريطانيا والقضاء على هذه الثورة .

وعندما جاء أجريكولا إلى بريطانيا بعد اختياره حاكماً عاماً على الجزيرة كان الجيش الرومانى يتوق إلى الراحة . وكان العدو يتربص الفرص . وكانت قبائل أوردوفيكيس Ordovices قد قضت قضاء تاماً على فرقة من الخيالة كانت تعسكر بينهم . وكانت الجزيرة كلها تترقب ما يفعل الحاكم الجديد . وعزم أجريكولا على مواجهة الخطر دون انتظار . فجمع بعض الجنود من الكتائب المختلفة ، واستعان بفريق من الكتائب المساعدة ، وتسلق المرتفعات ، إذ رأى أن قبائل أوردوفيكيس تأبى الهبوط إلى السهول . وقد نجح فى القضاء على هذه القبائل . ثم وجه نظره شطر جزيرة مونا ، وكان باولينوس قد تركها عائداً إلى بريطانيا للقضاء على الثورة . وقد باغت أجريكولا أهل الجزيرة الصغيرة فلم يجدوا سبيلا غير التسليم والاستسلام . ولكن أشد الأخطار التى واجهت أجريكولا ثورة شاملة قادها كالجاكوس Calgacus ، وكان من أعظم رؤساء القبائل شجاعة وأكثرهم إقداماً ، كما كان من أقدم الرؤساء نبلا وشرفاً . ويضع تاكيتوس على لسان هذا الزعيم خطبة من أجمل ما كتب فى مهاجمة الاستعمار والاستغلال فى جميع البقاع . وقف كالجاكوس كما يصوره تاكيتوس ، وسط الجموع الزاخرة التى تهتف طالبة الحرب ، فقال :

« كلما أمعنت النظر فى أسباب هذه الحرب ، وفى حرج موقفنا ، ازداد قلبى إيماناً بأن وحدتنا هذه فى يومنا هذا ستكون بداية الحرية فى بريطانيا كلها . فلا زلنا جميعاً أحراراً ، وليس هناك وراءنا من أرض يابسة ، أما البحر نفسه فلم يصبح بعد آمناً ، والأسطول الرومانى يهددنا . وعلى ذلك فالحرب والسلاح ، وهما فخر الأقوياء ، قد أصبحا سبيل النجاة للجبناء . قد تركت الحروب السابقة التى خاضها البريطانيون ضد الرومان ، وإن اختلفت نتائجها ، فى أيدينا الأمل والمعونة . لأننا أنبل أناس فى بريطانيا . ولهذا أقمنا فى قدس أقداسها . لم نر قط شواطئ العبودية . وقد حافظنا على أعيننا من رؤية الدنس والظلم والسيطرة . وهذا المكان القصى ، وهذا الظلام الذى أرخى سدوله على شهرتنا دافع عنا نحن الذين نسكن أطراف المعمورة وأنقذ البقية الباقية من الحرية إلى يومنا هذا . فان من جهل شيئاً ، استعظمه ، غير أن أقطار بريطانيا قد أصبحت مفتحة الآن . فليس هناك من قبيلة بعدنا .

وليس هناك إلا الصخر والبحر ، وروماں غاضبون لا يمكن الهرب من كبريائهم بالخضوع والمذلة . لقد فرغ لصوص الأرض هؤلاء من نهب العالم . فلم تعد هناك أرض تسلب . ولهذا بدأوا يفحصون البحر .فالرومان إن كان عدوهم غنياً ، دفعهم الجشع إلى محاربته ؛ وإن كان فقيراً ، حفزهم الطموح إلى اضطهاده . لم يكفهم شرق أو غرب . فهم قوم يتحرقون إلى قهر غنى الناس وفقيرهم بشعور واحد . وهم يطلقون اسم السلطان زيفاً على السلب والتقتيل والخطف . وعندما يجعلون مكاناً بلقعاً ، يسمون ذلك سلماً .

« ومن الطبيعى أن يكون أبناء المرء وأقرباؤه أحب الخلق إليه . ولكن الرومان يبعدونهم ليستعبدوا فى مكان آخر تحت ستار التجنيد . وأزواجنا وأخواتنا إن هربن من شهوات الأعداء ، دنسهن الأصدقاء والأضياف . فأموالنا وثرواتنا تستنفد فى دفع الجزية ، وأراضينا ومحاصيلنا فى تقديم المؤونة ، وأجسامنا وأيدينا فى ردم البرك وقطع الغابات تحت ضربات السياط ونظرات الازدراء . فالأرقاء الذين ولدوا للعبودية يتكفل سادتهم بمجرد شرائهم بتقديم الطعام إليهم . أما بريطانيا فإنها تدفع كل يوم ثمن عبوديتها ، وتغذى كل يوم هذا الاستعباد . وكما يحدث فى كل أسرة ، يصبح أحدث العبيد سخرية زملائهم القدامى ، فكذلك نحن العبيد الجدد عديمى القيمة استولت رومة علينا لمجرد القضاء علينا . فليس لنا حقول أو مناجم أو موان يمكن الاحتفاظ بنا للعمل فيها . أما شجاعة الرعايا وحميتهم ، فأمر بغيض فى نظر السادة والحكام . وبعدنا وانعزالنا ، كما أنه أكثر أمناً ، فهو أشد ريبة .

« أما وقد ذهب الأمل فى الصفح ، فالشجاعة ! الشجاعة ! يا من تساوى فى نظرهم المجد والسلامة . لقد استطاعت قبيلة بريجانتيس Brigantes ، تقودهم امرأة ، أن يشعلوا النار فى مستعمرة وأن يستولوا على معسكر عنوة ؛ ولولا أن نجاحهم جرهم إلى الكسل والإهمال ، لاستطاعوا إلقاء هذا النير . أما نحن الذين لم يمسسهم سوء ، الذين لم يخضعوا لأحد من قبل ، والذين يجلبون معهم حرية لا ندماً على ما ارتكبوا ، فلنرهم تواً فى أول اصطدام أى رجال احتفظت بهم كاليدونيا لنفسها .

« أتظنون أن للرومان شجاعة فى الحرب مثل ما لهم من مجانة فى السلم ؟ لقد كان تفرقنا وشقاقنا هو سبب شهرتهم . ولقد أصبحت أخطاء أعدائهم أمجاداً لجيشهم ، هذا الجيش المؤلف من شتيت القبائل الذى يمسكه النصر وينحل بالهزيمة . إلا إذا كنتم تظنون أن الغاليين والجرمان وكثيراً من البريطانيين (يا للعار !) الذين يعيرون دماءهم للسيطرة الأجنبية والذين قضوا زمناً أطول كأعداء للرومان ، لا كعبيد لهم ، يعتصمون بالولاء والإخلاص . فالخوف والفزع من روابط المودة الضعيفة . فان ذهب الروع ، دب إلى النفوس البغض . إن جميع ما يحفز إلى النصر يقف إلى جانبنا. فليس للرومان أزواج يشعلن حماسهم ، ولا آباء يعيرونهم بفرارهم ، وليس لكثيرين منهم وطن ، فإن كان لهم وطن فهو بلا ريب غير رومانى . إنهم قلة ترتعد لجهلها بالإقليم . فالسماء والبحر والغابات وكل شىء يحيط بهم مجهول لديهم . لقد سلمهم الآلهة لنا مكبلين بالأغلال . فلا يفزعنكم منظرهم الزائف ولا بريق الذهب والفضة . فليس فى مثل هذه الأشياء نفع أو ضر . وسنجد فى صفوف الأعداء أصدقاء لنا . سيدرك البريطانيون أين يوجد صالحهم الخاص ، وسيذكر الغاليون حروبهم السابقة ، وسيهجر الجرمان أعداءهم الرومان ، كما تركتهم منذ وقت قريب قبيلة أوسيبى Vsipi . فاذا ذهب أولئك ، لم يبق من نخشاهم . فالقلاع خاوية ، والمستعمرات يقطنها العجزة ، والمدن عليلة يتنازعها من يطيعون رهبة ومن يحكمون ظلماً .

« هاكم قائداً ! وهاكم جيشاً ! أما فى الجانب الآخر فهناك جزية ومناجم وعقوبات معدة للعبيد . وفى مقدوركم فى هذا المعسكر أن تقرروا احتمال هذا إلى الأبد أو الثأر لأنفسكم تواً . اذكروا أجدادكم وأحفادكم فى طريقكم إلى القتال » .

ولكن شجاعة البريطانيين لم تجد أمام تدريب الجيش الرومانى وعبقرية قائده ، فقتل من البريطانيين فى موقعة جبل جراديوس عشرة آلاف .

ولكن أخبار هذا النصر بعثت القلق فى فؤاد دوميتيان . ومع أنه أمر مجلس الشيوخ أن يمنح القائد المظفر كل مظاهر التكريم ، إلا أنه صمم على استدعائه فعاد أجريكولا إلى رومة ، وبقى فيها هادئاً معتذراً عن كل منصب عرض عليه حتى وافته منيته ، فى أثناء قنصلية كوليجا وبريسكوس .

وفى نفس السنة التى نشر فيها تاكيتوس كتابه عن أجريكولا ، نشر كذلك كتابه عن جرمانيا Germania والهدف من نشر هذا الكتيب الأخير غير معروف . قيل إنه منشور سياسى للدفاع عن سياسة تراجان فى مهادنة الجرمان . وقيل إنه ثناء على الجرمان وهجاء للرومان الذين أراد تاكيتوس أن يطلعهم على أخلاق أمة فتية لم ينشب فيها الفساد أظفاره ولكى يقارن بين الرومان وبين الجرمان من النواحى الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية . ومهما يكن هدف تاكيتوس فى كتابه جرمانيا ، فمصادره كلها سماعية . فتاكيتوس نفسه لم يكن يعرف اللغة الجرمانية ولم يزر جرمانيا على الإطلاق ، ولكنه قرأ كل ما كتب عنها ،وربما استمع إلى بعض الأسرى من الجرمان . ولهذا فعلم تاكيتوس بجغرافية ألمانيا ضئيل جداً . ويتضح ذلك عند ذكره لحدود جرمانيا : « جرمانيا ككل يفصلها نهرا الراين والدانوب عن بلاد الغال ورايتيا وبانونيا : ويفصلها عن قبائل السرماتيين وداكيا خوف متبادل أو الجبال »

وأهم ما نستقى من كتاب تاكيتوس وهو أول مؤلف ظهر فى العالم القديم عن جرمانيا والجرمان ، إشارات لها قيمة كبرى عن العادات والأخلاق الجرمانية القديمة : وأهم ما يخلب لب أولئك الذين درسوا تاريخ اليونان فى عصر هوميروس أن يلحظوا أوجه الشبه والاختلاف بين الجرمان كما يصفهم تاكيتوس وبين الإغريق فى القرن التاسع قبل الميلاد ؛ ولا سيما إذا تذكرنا أن اليونانيين والجرمان من أصل آرى واحد . كان اليونانيون فى عصر هوميروس والجرمان فى القرن الأول بعد الميلاد يحملون سلاحهم فى أثناء قيامهم بواجباتهم اليومية . وكان الشعبان يسارعان إلى إكرام الضيف ، كما كان العرب يفعلون فى العصر الجاهلى . وهم كالبدو من الأعراب مغرمون بالثأر ، ولكنهم يقبلون الفدية ποινή . وهذه الشعوب الثلاثة : العرب واليونان والجرمان ، يقومون بتقديم مهر عند الزواج . والمعروف أن النظام الإغريقى العتيق ناله تغيير كبير فيما يخص المهر . ومن أسباب عدم الوفاق بين خطاب بينيلوبى ووالدها اختلافهم على المهر ، فالخطاب يرغبون فى قبض المهر ، ووالد بينيلوبى يصر على استلام مهر . وهذا يدلنا على أنه فى الوقت الذى سطرت فيه الأوديسية كانت العادات الخاصة بالزواج فى بلاد اليونان قد بدأت فى التطور . وعرض الجرمان لشئونهم السياسية على الجمعية العامة بعد أن يناقشها الرؤساء فى مجلس خاص يذكرنا بمجلس البولى فى عهد هوميروس وبالاجتماعات التى كانت تحدث فى السوق ἀγορή فى العصر الهوميرى .

ولكن الجرمان فى القرن الأول بعد المسيح كانوا أكثر تأخراً من الإغريق فى القرن التاسع قبل الميلاد : فلم يكن للجرمان معرفة بالمعادن بمكن مقارنتها بما كان لليونانيين . وكان استخدامهم للمعادن نادراً . وكانت سفنهم لا شراع لها . وكانت دورهم أكواخاً ، إذا قورنت بقصور أثرياء الإغريق . وقد حمل الجرمان

معهم إلى موطنهم الجديد ، وإن ظنهم تاكيتوس أصيلين فى البلاد ، بعض العادات التى تذكرنا بالقبائل الآرية التى لم تهاجر من آسيا ، كاستخدام الخيول فى استطلاع الغيب ومناقشتهم الشئون الهامة فى الولائم وهيامهم بالقمار .

ولكن هناك جانباً يثير الإعجاب فى حياة هؤلاء الجرمان . فهم يعيشون أحراراً ، وقد حدوا من سلطان ملوكهم وحكامهم . وهم لا يسجدون لبشر ، ولا يرفعون إنساناً إلى مصاف الآلهة . وهم لا يسرفون فى الإنفاق على دفن موتاهم . وليس للربا عندهم وجود . ولا يهتمون بالأكل فى صحاف الذهب أو الفضة أو الخزف . وهم يتركون العنبر ملقى على شواطئهم . وليس لديهم مجالدون يقاتل بعضهم بعضاً حتى الموت ترفيهاً عنهم . ولما كانت الزوجة لا تحمل مهراً ، فكل متاعب الزوج الغنية ، وترفهاً ، ورسائلها الغرامية إلى عشاقها أمر لا يعرفه الجرمان . ولكنهم يعتبرون الزواج عقدة لا انفصام لها . والخيانات الزوجية غير معروفة . فان كشفت ، صب عليها أشد العذاب . ولهذا فأطفالهم لا يطرحون أو تهمل تربيتهم أو تقوم عليها الإماء .

ولكن تاكيتوس يرينا وسط هذه الصور المثالية صوراً من التنازع والتناحر الذى يدمر حياة الجرمان ، كما يصور لنا حبهم للخمر والسطو .

ومن النظم التى يصفها تاكيتوس ، وكان لها فى تاريخ الجرمان ، بل فى تاريخ أوربا ، أثر بالغ : حشد الشبـــان فى حاشية الأمير كرفقاء له comitatus, comites . وكان عـــلى الرئيس princeps أن يكفل لهؤلاء الرفاق عيشة راضية قطوفها دانية وأن ع لهم أسلحتهم وكل ما يحتاجون إليه من عدد الحرب على هؤلاء الرفقاء واجب الالتفاف حول رئيسهم المواقع . فكان من العار أن يقتل الرئيس ويعود ، كما كان من الشنار أن يهرب الرفيق من كاً رئيسه . ولكن من الواضح أن مثل

هـــذه المنظمات العسكرية كانت خطراً على الدولة فقد كانت تكون دويلات داخل الدولة . فكل رئيس غنى يستطيع أن يجمع حوله فئة مخلصة له ، تعتمد اعتماداً كلياً عليه ، وله الحق فى أن يقودها إلى حيث يريد .

أما عن دين الجرمان ، فان تاكيتوس لا ينقل لنا إلا صورة رومانية مبهمة عن معتقدات الجرمان القدامى فكل إله من آلهة الجرمان أعطى اسما رومانياً . بل اننا لنجد الإلهة المصرية ، إزيس ، من بين معبوداتهم . ولكن تاكيتوس يدرك أنه لم يكن للكهنة فى ألمانيا ما كان لهم فى بلاد الغال . فالكاهن الجرمانى إن هو إلا خادم الإله . ولكنه فى بعض الأحيان ونظراً لصلة الدين بالحياة السياسية يبدو وكأنه أقوى من الملك نفسه . فهو الذى يحافظ على النظام فى الاجتماعات العامة كواجب مقدس . وهو وحده القادر على تنفيذ الأحكام الصادرة من الآلهة . ولما كانت الطقوس الجرمانيةترجع إلى أقدم العصور ، كانت الضحايا البشرية تقدم فى السلم وفى الحرب على السواء .

وطريقتهم فى الاقتراع أن يأخذوا غصناً من شجرة مثمرة فيقطعوه قطعاً صغيرة وتوضع على كل قطعة علامة . ثم يضعون القطع على ثوب أبيض . ويأخذ الكاهن أو رب الأسرة بعد الابتهال إلى الآلهة ثلاث قطع ، ينظر إلى العلامات المدونة عليها ويعلن رأيه طبقاً لذلك .

والنهج الموثوق به فى استطلاع الغيب هو ما استخدمت فيه الخيول لمعرفة إرادة الآلهة . ولهذا كانوا يربون بعض الخيول البيضاء فى أجمة لم يدنسها بشر . فإذا أرادوا معرفة الغيب ربطوا بعض هذه الخيول إلى العربة المقدسة فى حضرة الملك أو الكهنة . ثم يلاحظون صهيلها وما تحدث من أصوات أخرى . وهم يؤمنون إيماناً لا يتزعزع فى هذه الطريقة لأن الخيل فى رأيهم موضع ثقة الآلهة conscii .

ويختم تاكيتوس مقاله عن جرمانيا بذكر الخسائر التى منى بها الرومان على أيدى الجرمان ، فيقول :

« كان قد مضى على تأسيس مدينتنا ستمائة وخمسون سنة قبل أن يسمع الناس لأول مرة عن جيوش الكيمبرى Cimbri ، وكان يشغل منصب القنصلية كايكيليوس ميتيلوس وبابيريوس كاربو . وإذا عددنا السنين التى مرت بين ذاك التاريخ وبين القنصلية الثانية للإمبراطور تراجان ، كان عدد السنوات مائتى سنة وعشر سنوات تقريباً . وقد استغرق فتح جرمانيا كل هذه المدة . وبين بداية هذه الفترة الطويلة ونهايتها حدثت خسائر كثيرة متبادلة . فلم يعلمنا السامنيت أو القرطاجنيون أو بلاد الغال أو أسبانيا أو حتى البارثيون دروساً أكثر مما لقننا الجرمان . فهؤلاء الجرمان ، وهم يحاربون دفاعاً عن حريتهم ، كانوا أشد ضراوة من أرساكيس . بم يسبنا الشرق ، إن أغفلنا مصرع كراسوس ، ذاك الشرق الذى سقط تحت قدمى رجل مثل فينتيديوس Ventidius ، بعد أن فقد أميراً مثل باكوروس Pacorus ؟ ولكن الجرمان قهروا كاربو أو أخذوه أسيراً ، كما أسروا كاسيوس وأوريليوس سكاوروس وسيرفيليوس كايپيو وجنايوس ياليوس ، كما أسروا خمسة من جيوش الأمة الرومانية على رأس كل منها قنصل فى غزوة واحدة . وفى زمن أغسطس ، أسروا فاروس ومعه ثلاث كتائب . بل لم يكن الثمن ضئيلا الذى دفعه ماريوس الذى انتصر عليهم فى إيطاليا ، ويوليوس قيصر الذى هزمهم فى بلاد الغال ، ودروسوس نيرو وجرمانيكوس فى عقر دارهم . وبعد فترة ساد السلم ، بعد أن انقلبت المأساة الضخمة التى أعلن عنها جايوس قيصر كاليجولا إلى مهزلة مضحكة . وقد سنحت فرصة للجرمان أثناء نشوب النزاع والشقاق والحرب الأهلية بيننا فاستولوا عنوة على معسكرات الشتاء التى تقيم فيها الكتائب ، بل لقد تطلعت أعينهم إلى بلاد الغال . وفى النهاية ، وبعد أن طردوا من هنالك ، زين الجرمان مواكب النصر الرومانية دون أن يظفر بهم أحد » .